التبيين في فوائت القدماء والعصريين

الأستاذ صبحي البصّام

شفيلد- إنجلترا

فائتة الأصمعي ومن تابعه فيها

١- **الرواية الصحيحة لبيتين:** في "جمهرة أشعار العرب" (ط- صادر ٢٥٦) قصيدة لأعشى باهلة يرثي فيها المنتشر بن وهب الباهلي، ومنها قوله فيه:

لا يتأرّى لما في القدر يرقبه ولا يعضّ على شرسوفه الصَّفَرُ

وقوله فيه بعد ثلاثة أبيات:

لا يغمز الساق من أينٍ ولا نَصَبِ ولا يزال أمام القوم يقتفرُ

ومؤلف جمهرة أشعار العرب، وهو أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي، من علماء المئة الثانية. وهو أقدم من روى هذه القصيدة. والمرثي كما في البيت الأول لا يتحبَّس منتظراً أن ينضج ما في القدر ليأكله وهو يأنف أن يظهر جوعه كأنه مصاب بالصَفَر (١). والمرثي كما في البيت الثاني، لا يشعر بتعب يحوجه إلى غمز ساقه، لذلك تراه أمام أصحابه عند اقتفارهم الأثر في الصحراء. وواضح أن رواية البيتين المذكورين صحيحة، وأنهما ليسا مداخلين كما سيأتي من قول الصغاني فيهما، لأن (جمهرة أشعار العرب) أقدم مرجع للقصيدة التي منها هذان

(١) في تهذيب اللغة ١٦٧/١٢ أن رؤبة قال في الصفر: (حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس). قلت: وقوله موافق للحقيقة ولما يقوله الطب الحديث. وفي العراق يقال للصفر الدودة الوحيدة.

البيتان، ثم إن عجز كل منهما يتمم صدرهَ في المعنى، وهو صالح له صلاح المفتاح لقفله. وممن روى الشعر على وجه الصحة كما في جمهرة أشعار العرب:

مؤلف كتاب العين (١٣/٧ صفر) (٣٠٣/٨ وار)- روى البيت الأول.

وابن سلام الجمحي (طبقات فحول الشعراء ٢١١/١) روى البيت الثاني.

وابن دريد (جمهرة اللغة- ر ص ف) روى البيت الأول.

والقالي (الأمالي ٢٠١/٢) أيضاً روى البيت الأول.

والجوهري (الصحاح – صفر) أيضاً روى البيت الأول.

وابن الشجرى (مختارات شعراء العرب ٣٧) روى البيتين معاً، وأظنّه نقلهما من جمهرة أشعار العرب.

والجواليقي (شرح أدب الكتاب ١٤٩)، أيضاً روى البيتين معاً ولكنّه سها فقدَّم الثاني على الأول.

٢- **فائتة الأصمعي ومن تابعه فيها**: وأنشد الأصمعي البيتين في الأصمعيات (٣٣ ط. برلين) فكانا مداخلين على هذا النحو:

لا يتأرّى لما في القدر يرقبه ... ولا يزال أمام القوم يقتفرُ
لا يغمز الساق من أين ولا نصب ... ولا يعضّ على شرسوفه الصَفَرُ

وظاهر الحال أن الأصمعي أول من وهم في إنشاد هذا الشعر إذ جعله مداخلاً، صار عجزُ البيت الثاني عجزاً للبيت الأول، وصار عجز البيت الأول عجزاً للبيت الثاني.

ثم وهم ابن السكيت إذ أورد البيت الأول في إصلاح المنطق (١٩٩) مداخلاً، وصرّح بنقله عن الأصمعي.

ووهم الجاحظ في البخلاء (١٠٧) إذ أورد البيت الأول كذلك.

ووقع الطبري في الوهم نفسه في (جامع البيان ١٤/٨١ بولاق).

ووهم الصغاني في التكملة والذّيل والصّلة (٣/٧١- ص ف ر) في تعليقه على إنشاد الجوهري للبيت الأول في الصحاح وهو:

لا يتأرّى لما في القدر يرقبه ولا يعضّ على شرسوفه الصَفَرُ

بأن قال: (الإنشاد مداخلَ والرواية):

لا يتأرّى لما في القدر يرقبه ولا يزال أمام القوم يقتفرُ
لا يغمز الساق من أينِ ولا نصب ولا يعضّ على شرسوفه الصَفَرُ)

هكذا، أي أنه اعتمد رواية الأصمعي في الأصمعيات مع أن رواية الأصمعي هي المداخلة وإنشاد الجوهري صحيح.

وممن هم في ذلك من العصريين الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي في أمالي القالي (٢/٢٠) لاستناده إلى رواية الأصمعي، وأستاذٌ لم يذكر اسمه بل ذكر أنه (مصحّح لسان العرب في بولاق) وذلك في شرح أدب الكتاب للجواليقي (١٤٦)، والأستاذان مطاع الصفدي وإيليا حاوي في موسوعة الشعر العربي (٣/٢٨٦) ومعهما المراجع الأستاذ خليل حاوي.

وإن كان ظاهر الحال أن الأصمعي أول من جعل البيتين مداخلين، ثم جازت المداخلة على ابن السكيت والجاحظ، ثم جازت على غيرهما، فالإنصاف يقتضي أن أستدرك فأقول: كان الأصمعي من أبصر العلماء في رواية الشعر

وتمييزه وفهمه، وجائز أن يكون بريئاً من المداخلة، خصوصاً، إذا كان نقل البيتين من القصيدة، فبينهما ثلاثة أبيات لا تورط في مداخلة، إلا أن يفرط ذلك إبان تبييض لم يعقبه مراجعة. فإن كان بريئاً منها جاز أن يكون ناسخ كتابه وقع فيها ثم تابعه فيها من تابعه. وابن السكيت وإن كان من أركان اللغة يجوز أن يغم عنه ما عدل عن معناه الأصلي من ذلك الشعر. وإن كان الجاحظ أديباً كبيراً فإن عجلته في تأليف بعض كتبه ربما عاقته عن التثبت في بعض الأمور. ومن شاء توضيحاً لما قلت في ابن السكيت والجاحظ أمكنه إن شاء الله أن يقرأ استدراكي على ابن السكيت في هذه المجلة (العدد ٣٨ والعدد ٤٨) واستدراكي على الجاحظ في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (المجلد ٥٩ ج٤).

من فوائت ابن سيدة

عُرف ابن سيدة (ت٤٥٨هـ) عالماً من علماء العربية الأجلاء. ألّف كتباً هي نور لدارسي اللغة والنحو والأدب. وهذا حقّ لا شكّ فيه، ولكنه حق يحتاج إلى تمام، ومن تمامه أن يعرف ما على هذا العالم الجليل كما عُرف ماله. كنتُ قرأت كتابه المحكم والمحيط الأعظم سنة ٦٨ في العراق قراءة عجلان، ثم قرأته سنة ٧٨ في خزانة كتب جامعة درم من إنجلترا قراءة مكث وهينة، فوجدت فيه أموراً يسيرة فيها نظر فدونتها في دفتري مختصرات معان ثم تناسيتها. وهذا إبان تحرير الأهم منها معززة بالشرح والشواهد. وسأذكر في آخر تلك الأمور أمراً فيه نظر وقفت عليه مصادفة وأنا أقلّب أوراقاً من كتابه المخصص. وأسأل الله وأنا محرر ذلك أن يجعلني مجانباً للوعث، ملازماً للجَدَد، بريئاً من المدالسة، مستنيراً بالعلم، لكي لا أغمز بمثل العامة القديم، ذَنَبه قِشّ ويتحرّش بالنار.

١- **أسلوبه في انتقاد العلماء:** انتقد ابن سيدة في خطبة معجمه المحكم على أبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) شيئاً في اللغة، وغض من علمه،

زاعماً أن ذلك منه يدل: (على ضعف المُنّة وسخافة الجُنّة)(٤/١). وعلّق على تفسيره لكلمة، فقال ساخراً منه: (وصلى الله على نبينا محمد القائل إنّ من البيان لسحراً، وأين هذا من قولي بدل هذه العبارة:...) إلى آخر قوله (٨/١). وانتقد على أبي عبد الله بن الأعرابي (ت ٢٣١هـ) شيئاً في اللغة، ووقع فيه، زاعماً أن ذلك منه يدل على (قلة التفصيل والبعد عن التحصيل والجهل بالتنتيج والتلقيح) (٤/١). ومضى يقول: (فاين علم أبي عبدالله ابن الأعرابي بأسرار هذه الصيغ من علمي أو فهمه لغوامض تأويلها من فهمي؟) (٤/١). ثم قال: (ولينظروا نحوي فمن أبصر فقلما تخفى ذُكاء، ومن عشي فعاذر أن لا تراني مقلة عمياء) (١٦/١). وقال: (أنا الجواد الخوّار المخترق للميدان) (١٦/١). وكأني بالطبيب الأديب داود الأنطاكي اقتدى به في فخره هذا، ولكنه زاد عليه، وذلك في قوله، كما في سلافة العصر، (لو رآني ابن سينا لوقف ببابي، أو ابن دانيال لاكتحل بتراب أعتابي)، وكان الأنطاكي كفيف البصر كابن سيدة. إنّ استطالة ابن سيدة على أبي عبيدة القاسم بن سلام وابن الأعرابي عمل لا يخالطه صواب، وقشور ليس فيها لباب – فهما قد فازا من العلم بالقسم الأجزل والنصيب الأوفر. ولو كان ابن سيدة في زمانهما وأتاهما فكاثرهما لجاز أن ينكفئ مكثوراً، أو غالبهما لجاز أن يرتد مغلوباً. لقد تعلم من علمها ما أعان على تقويم قناته. وصقل مرآته، ورفع مكانه، وتفخيم شأنه، فهما من شيوخه على بعد ما بينهما من زمان. وكان محقوقاً أن يختصّهما بالإجلال والتوقير. والعلماء وهو منهم، غير معصومين من الخطأ، فربما أخطأ المهتدي قصده، وأصاب الضال رشده. ومن نبّه منهم على خطأ لبعضهم ، وجعله من الفضائح، وفضّل علمه على علم المخطئ، فقد شطب عن وقار العلم، ونكَبَ عن فضيلة التواضع. وقلّةٌ من الأدباء تعلم أنّ ابن سيدة لمّا ألّف كتابه المخصّص اتّخذ من كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام (الغريب المصنف) أساساً لكتابه. وكتاب ابن سلام الآن مخطوط في قريب من ٧٠٠ صفحة. فأخذه ابن سيدة كله، بمادته

وأبوابه وفصوله، ثم أضاف إليه كثيراً من كتب أخرى حتى استوى له كتابه (المخصص). فهو إذ أخذ علماً من ذلك العالم وذمّه كان كمن يأكل طعاماً لذيذاً من كريم (ثم يبسط لسانه فيه ويسترذل طعامه)، أمّا افتخاره بأنه كالشمس التي قلّما تخفى، وكالجواد الخوّار فشيء مستبرد، غير معيج عليه، ولا محفول به، وأن يُحسن المرء فيطريه الناس خير من أن يحسن فيطري نفسه في عُجب وتيه. بل من أحسن وشعر أن الله عالم بإحسانه، فقد استغنى عن إطراء الناس له فضلاً عن إطرائه لنفسه. وتمثله بقول المتنبي (فعاذر أن لا تراني مقلة عمياء) كان خليقاً به أن يجتنبه لموضع عماه.

٢- **قوله (نُمُوّاً)**: وقال ابن سيده في خطبة معجمه المحكم (زاد اللهُ عزّه عُلُوّاً، وملكه نموّاً، ولا أسأرت له الأيام عدوّاً) (١٨/١). فاستعمل (نموّاً) من (نما ينمو) بالواو، واللغة الفصحى (نماء) أو (نمياً)، وندر قولهم (نميّ)، وذلك كله من (نمى ينمي) بالياء. أمّا (نما ينمو)، فلغة كانت لبعض العرب ثم انتشرت على ألسنة المولدين وهي ليست بذات قدر بجانب (نمى ينمي)، فإن كان ابن سيدة استعمل (نموًّا) للمضيّ في السجع، فالسجع مع (نماء) على أنه مصدر نمى ينمي لم يكن عسراً عليه، كأن يقول (زاد الله عزّه علاءاً وملكه نماءاً). ولو شاء أن يتم العبارة بسجعة أخرى لم يعسر عليه ذلك كأن يقول (وقطّع عدوّه أشلاءاً)، وكان ثعلب نبّه في كتابه (الفصيح) على أن نمى ينمي هو الفصيح. وعلّق ابن درستويه على ذلك في كتابه (تصحيح الفصيح) بقوله: (وإنما ذكر ثعلب نمى ينمي؛ لأنّ العامة تقولها بالواو ينمو وهي لغة لبعض العرب وليست بخطأ ولكنّ الياء أعلى وأعرف في كلام الفصحاء. ويقولون في مصدره أيضاً النموّ بالواو)(١٧/١). وأنا ذاكر ههنا شواهد كثيرة لنمى ينمي، وذلك لسببين أحدهما أن القارئ قد يستغرب تفضيل نمى ينمي لغلبة نما ينمو عليها في لغة المولدين ومن جاء من بعدهم حتى

عصرنا هذا. والسبب الآخر أني أريد أن أجعل من الشواهد سندي في استدراكي على ابن سيدة، وفي استدراك لي آتٍ على كتاب العين، فخزانة الأدب.

قال الأعشى (ديوان الأعشى الكبير ٤١٩):

فهب لي ذنوبي فدتك النفوس ولا زلت تنمي ولا تنقصُ

وقال كعب بن زهير (الديوان : ٥١ ش. السكري):

والمرءُ والمالُ ينمي ثم يُذهبه مرّ الدهور ويفنيه فينسحقُ

وقال الحارث بن وعلة الجرمي (أمالي القالي ٢٦٤/١):

أن يأبروا نخلاً لغيرهم والشّيء تحقره وقد ينمي

وقال ابو زبيد الطائي (جمهرة أشعار العرب ٢٦٣):

يعتلي الدهر إذ علا عاجز القو م وينمي للمستتم الحميدِ

وقال عبد المسيح بن عسلة في الخمر (المفضليات ٥٥٧):

وتبيّن الرأي السفيه إذا جعلت رياحُ شمولها تنمي

وقال قيس بن الخطيم (معاهد التنصيص ١٩٣/١):

ولا يُعطى الحريصُ غنى بحرصٍ وقد ينمي على الجود الثراءُ

وقال شريح اليربوعي (النقائض بين جرير والفرزدق ٨/٢):

بأبناء عتّاب وكان أبوهم إلى الشرف الأعلى بآبائه ينمي

وقال جميل بثينة (الشعر والشعراء ٤١٠/١):

علقـت الهـوى منهـا وليـداً ولـم يـزل إلـى اليـوم ينمـي حبهـا ويزيـدُ

وقال الراجز (جمهرة اللغة ٢٦٨/٣م ن):

يـا حـبّ ليلـى لا تغيّـر وازددِ وانـمِ كمـا ينمـي الخضـابُ فـي اليـدِ

وقال غدير بن ناهض (التعليقات والنوادر للهجري ٢٢٣/٢):

فيصـبح باليـه جديـداً ونبتُـهُ أفيفـاً وينمـي مالـه حـين يسـرح

وقال أبو نخيلة في رجز له (الجليس الصالح الكافي ٥٢٩/١):

في جسد ينمي وعقل يجري

وهو في الأغاني (ج١٩- أبو نخيلة) و(اللسان ٣٩٠/٨): ذا حمق ينمي.

وأنشد الأصمعي لأعرابية (العقد الفريد ٢٦/٢):

كنـا كغصـنين فـي جرثومـة بسـقا حينـاً علـى خير مـا ينمـي بـه الشـجر

ومن رسالة لأكثم بن صيفي (جمهرة رسائل العرب ٢١/١): (فإن البر ينمي عليه العدد).

وفي خطبة لسهل بن عمرو في الرسول -صلى الله عليه وسلم- عند وفاته (الأوائل ق٨/١): (فلم يزل أمره ينمي ويتصاعد).

أمّا لغة (نما ينمو نموّا) فلم أجد لها شاهداً في شعر القدماء المستشهد بلغتهم، وذلك على تفتيشي عنه منذ أكثر من خمسين سنة. أمّا في نثرهم فنادر جداً، ومن هذا الندر ما جاء في عيون الأخبار (٧٦/٢) من أن أمرأة قالت للرسول

-صلى الله عليه وسلم- في غنمها (إنها لا تنمو). ولوقولها احتمالان، أحدهما أنها نطقت بالفعل بالواو، أي بلغتها، وهي اللغة التي زوى ثعلب وجهه عنها في فصيحه وقال ابن درستويه: إنها لغة لبعض العرب. والاحتمال الآخر أن تكون قالت (لا تنمي) بالياء، ثم روي قولها أيام المولدين بالواو لغلبة الواو في هذا الفعل على الياء على ألسنتهم. ويدل على غلبة الواو قول أبي تمام (الديوان):

إن الهلال إذا رأيت نموّه   أيقنت أن سيصير بدراً كاملاً

وقول الجاحظ (رسائل الجاحظ ١/١٠٥): (فلا يزال ذلك يجرح في القلب وينمو)، وقول الثعالبي في خطبة كتابه (التمثيل والمحاضرة ٤): (وزاد دولته شباباً ونموّاً، كما زادته في السن علوّاً).

فائتة كتاب العين وخزانة الأدب:

وأستطرد لأنبّه على فائتتين: إحداهما: جاء في كتاب العين (٨/٣٨٤ نما): (نما الشيء ينمو نموّاً ونمى ينمي نماء أيضاً... ونما الخضاب ينمو نموّاً إذا زاد حُمرة وسواداً)، هكذا، بجعل المادة (نما) بالألف لا (نمى) بالياء. وبدأ محشي المادة بقوله: (نما الخضاب ينمو نموّاً إذا زاد حمرة وسواداً) في حين نرى الراجز استعمل للخضاب اللغة الفصحى وهي بالياء في قوله المذكور آنفاً وهو: (وانمِ كما ينمي الخضاب في اليدِ). ويبعد عندي أن يكون للخليل الفراهيدي يد في كتب المادة (نما) بالألف أو في تحشيتها على الوجه المذكور. وكنتُ قرأت كتاب العين بأجزائه جميعاً، فوجدت فيه ما يؤيّد قول ثعلب فيه في كثير من المواطن، وقول ثعلب هو كما في المزهر للسيوطي (٧٦): (إن وقوع الغلط فيه جاء من أن الخليل رسمه ولم يحشه). والفائتة الأخرى: أن عبد القادر البغدادي أنشد في خزانة الأدب (٤/٣٦٨) بيت الأعشى المذكور آنفاً وفيه: (ولا زلت تنمو ولا تنقص) بالواو من (تنمو) والصواب (تنمي) بالياء، وذلك كما في طبعات ديوان الأعشى وسائر

الكتب المعتمدة. ولم ينبّه على ذلك محققا الكتاب وهما الأستاذان الجليلان أحمد تيمور باشا وعبد العزيز الميمني. فعبد القادر البغدادي في إثباته (تنمو) بدلاً من (تنمي) كان كابن سيدة متأثراً بلغة من سبقه من المولدين كأبي تمام والجاحظ والثعالبي.

٣- **قوله (أهو هرب.. أم العين وضع)**: وقال ابن سيدة في المحكم (٨٣/٢ ص ق غ): (فلا أدري أهو هرب من الأكفاء أم الغين في صقغ وضع؟). والوجه أن يقدّم (هرب) على (هو) فيقول(فلا أدري أهربٌ هو من الأكفاء...)، وذلك أن (هو) معلوم فلا حاجة إلى تقديمه في السؤال، وإنما الحاجة إلى تقديم المجهول فيسأل عنه وهو (هرب)، ويذكر ما يعادله وهو (أم الغين في صقغ وضع). ويقال: أزيدٌ قام أم عمرو؟ فيقدّم أحد الاسمين المسؤول عنهما، ويؤخر الآخر وهو عديله، ولا يقدّم (قام) لأن القيام معلوم حصوله، وإنما يراد السؤال عمّن قام. وهذه لغة القرآن ولغة القدماء الفصحاء. قال تعالى: (أقريب أم بعيد ما توعدون)(الأنبياء /١٠٩) ولم يقل: أما توعدون قريب أم بعيد. وقال (آالذكرين حرّم أم الأنثيين) (الأنعام/١٤٣)، ولم يقل: أحرّم الذكرين أم الأنثيين. وقال: (أهم أشد خلقاً أم من قد خلقنا)(الصافات/١١) ولم يقل" أاشد خلقاً هم أم من قد خلقنا. وقال (أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) (الفرقان/١٧)، ولم يقل: أأضللتم أنتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل. ومن ذلك قول بعضهم يهجو خالد بن عبد الله القسري (شرح أدب الكتّاب للجواليقي ٢٩٧):

لعمرك ما أدري وإن كنت دارياً أبظراء أم مختونة أم خالد؟

وقول نصر بن سيّار (مروج الذهب ٢٥٥/٣):

أقول من التعجب ليت شعري أأيقاظٌ أُميةُ أم نيامُ؟

لذلك قال سيبويه بتقديم المسؤول عنه (الكتاب ٢٢/١) وذلك قوله (وتقول أسفيهاً كانزيد أم حليماً؟ وأرجلاً كان زيد أم صبيّاً؟ تجعلها لزيد لأنه إنما ينبغي لك أن تسأله عن خبر من هو معروف عنده). وقد أحكم الشدّ سيبويه بقوله (ينبغي) ولكنه نسي فأرخى من شده في موضع آخر من كتابه (٤٨٢/١ بولاق)، قال: (ولو قلت ألقيتَ زيداً أم عمراً كان جائزاً حسناً.. وإنما تقديم الاسم ههنا أحسن). أراد أن الأحسن: أزيداً لقيت أم عمراً؟ فغيّر لفظه من (ينبغي) الدال على الفصيح إلى (الأحسن). وممّن عدل عن الفصيح أو عن الأحسن محمد بن حبيب، قال في المحبّر (١٢٣): (حتى تعلم أهي تائبة هناك أم لا) والفصيح أو الأحسن: أتائبة هي؟ والزمخشري، قال: (ما أدري أهو حال متوقّع في كل ساعة أم مؤجّل) (الكشّاف. ق٢ ص- ١٥٦؟ ط. حيدر آباد)، والفصيح أو الأحسن: أحالٌ هو...؟ وغريب أنه ذكر عبارته هذه في تفسيره لقوله تعالى، وفيه الفصيح أو الأحسن (قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا). والحريري، قال في المقامة السمرقندية (فقلت والله ما أدري، أأعجب من تسليك عن أناسك... أم من خطابتك مع أدناسك) أراد: أمن تسليك عن أدناسك أعجب... أم من خطابتك مع أدناسك. على أن الحريري كان في موضع سجع وللسجع ضروراته. وقال أستاذي وصديقي اللغوي الدكتور مصطفى جواد رحمه الله: (أهو مكمل أم إكمال أم مستكمل)(قل ولا تقل- بجزأيه ٩٧) وهو يريد: أمكمل هو؟ وممن احوجته صنعة الشعر إلى أن يعدل عن الفصيح أو الأحسن عمر بن أبي ربيعة، وذلك في قوله:

أمِـــن آل نعـــم أنـــت غـــاد فمبكـــرُ غـــداة غـــد أم رائـــح فمهجّـــرُ؟

ولو كان أعانه وزن الشعر لقال: أغاد أنت من آل نعم... أم رائح، بتقديم (غاد) على (آل نعم) – ولو كان مراده تقديم (آل نعم) لجعل لهم عديلاً، كأن يقال في النثر: أمن آل نعم أنت غاد .. أم من آل ليلى؟ وإن كان ابن أبي ربيعة يعمل

شعراً له ضروروراته فقد كان ابن سيده يكتب نثراً ولغة، ومن أحكامهما استعمال اللغة الفصحى.

وإن كان تعبير ابن سيدة مفضولاً في علم النحو فهو مجفو في علم البلاغة. فالبلاغيون يرونه غير بليغ لأن الهمزة في نحو تعبيره عندهم للتصوّر وهو إدراك المفرد. يريدون أنك إذا قلت: (أزيد عندك أم عمرو؟) كان قولك بليغاً. فإذا قلت: (أعندك زيد أم عمرو؟) كان قولك غير بليغ، لأنّ المخاطب عند سماعه (اعندك زيد أم) قد يظن أنك تسأله عن موضع زيد، فيتوهم أنك ستتم قولك بعديل لـ(عندك)، كأن تقول (عند أبيه) فإذا هو يُبغت بـ(عمرو)- فهذا البغت هو كالعثرة في مسار فكر السامع وهو الذي يجعل قولك غير بليغ.

تنبيه: في مجلة البلقاء الخاصة بجامعة عمان الأهلية (المجلد ١ العدد ٢ السنة ١٩٩٢ الصفحة ٣٨) قول لي في نحو عبارة ابن سيدة، استدركت فيه على الجاحظ والأزهري والتوحيدي والبطليوسي والأعلم الشنتمري. وذكرت شواهد كثيرة لتعزيز رأيي. على أنّ قولي ههنا أوفي وأتمّ. ومن شاء أن يقف على ما قلته في تلك المجلة رجع إليها إن شاء الله.

٤- **قوله (بل إنما)**: وأنتقل الآن إلى كتاب (المخصص) لابن سيدة. قال ابن سيدة في خطبة كتابه هذا (٤/١): (ولا نريد بذلك أن هذا أمر خفي بل إنما نحيل فيه على أمر واضح). والفصيح أن يقول (بل نحيل فيه على أمر واضح) أو: (وإنما نحيل فيه على أمر واضح) دون أن يُدخل (بل) على (إنما). وكنتُ في مقالة لي نشرتها في مجلة مجمع دمشق للغة العربية (مج ٥٩ ج٤ سنة ١٩٨٤) عنوانها (الملاحظ في حيوان الجاحظ) خطأت المولدين القدماء في قولهم (بل إنما) وأنا ذاكر ههنا موجزاً: إنّ استقرائي منظوم العرب ومنثورهم في الجاهلية وصدر الإسلام يدل على عدم (بل إنما). وإنما تدخل (بل) و(إنما) على الجملة منفردتين.

فمثل (بل) قوله تعالى (وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله)(النساء/١٥٧) ولم يقل: بل إنما رفعه الله، وقول عمرو بن شأس:

لسنا نموت على مضاجعنا بالليل بل أدواؤنا القتلُ

ولم يقل: بل إنما أدواؤنا. وقول علي بن ابي طالب رضي الله عنه (البيان والتبيين ٢/٥٤): (ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً) ولم يقل: بل إنما كان به. ومَثلُ (إنما) قوله تعالى: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون)(البقرة/١١) ولم يقل: بل إنما نحن مصلحون. وقول الحجاج (البيان والتبيين ٢/١٣٨): (إني سمعت تكبيراً لا يُراد به الله إنما يُراد به الشيطان)، ولم يقل: بل إنما يُراد به. وقالت أعرابية (محاضرات الأدباء ١٣٨):

تالله ما ذلك في أيدينا وإنما يكره ما أعطينا

ولم تقل: بل إنما يكره، مع أن (بل إنما) أجوز لوزن رجزها، ذلك بأن إدخال (بل) على (إنما) ليس من لغتها.

وقد وجدت أن أقدم من استعمل (بل إنما) الجاحظ، ذلك في مواضع من كتابه الحيوان كقوله (٥/٤٢): (لم يكن لقائل أن يقول: ذلك الهواء من شأنه الصعود بل إنما ينبغي أن يقول...)، وابن الرومي وكان معاصراً للجاحظ وذلك في قوله (الديوان ص٢٧٦):

ما جربُ المرء داء جلدته بل إنما داء عرضه جَرَبُهْ

وقد قعّدت من مقالتي (الملاحظ في حيوان الجاحظ) المشار إليها آنفاً ثلاث قواعد في (بل) و(إنما) أولاهنّ أن العرب لم تقل (بل إنما). فإن لم يقتنع القارئ بهذا الموجز فليقرأ مقالتي المشار إليها، وهي مطولة فيها تفصيل وتوضيح وإقناع.

هذا وأنا أستحب التدرج اللغوي، خصوصاً الذي بدأ به قدماء المولدين. أما انتقادي على ابن سيدة الأمور التي ذكرتها، فمشاكل لمنزلته في اللغة ولكُتُبه وللمقام الذي أقام نفسه فيه في خطبة كتابه المحكم، إذ كان يغلّط غيره ويسخر ويفخر.

قول العصريين: سلّم به

استعمل القدماء من فصحاء وغيرهم (سلّم) بمعنى (اعترف)، وعدّوه بنفسه دون الباء. فإذا قيل: لا أسلم رايك، كان المراد: لا أعترف برأيك، وإذ قيل: لو سلّمنا رأيك جدلاً، كان المراد: لو اعترفنا برأيك جدلاً. ولندرة تعدية (سلّم) بنفسه في العصور الحديثة، ولغلبة تعديته بالباء أعددت هذا المبحث.

١- شواهد (سلّمه):

وهذه طائفة من نصوص قديمة تشهد لما أقول:

قال أبو سعيد السيرافي (المقابسات ٨٠): (فذلك شيء مسلّم لهم) ولم يقل: مسلّم به لهم.

وقال مسكويه (الهوامل والشوامل ٢١٥): (إنّ من الأصول التي لا منازعة فيها وهي مسلّمة من ذوي العقول السليمة) ولم يقل: مسلّم بها.

وقال أبو حيان التوحيدي (المقابسات ١٥٠): (هذا مسلَّم عند من ألّف شيئاً من الفلسفة) ولم يقل: مسلَّم به.

وقال الزجاجي (الإيضاح في علل النحو ٦٢): (ليس يجب أن يجعل دليله على صحة دعواه ما يُنازع فيه ولا يسلّم به) ولم يقل: ولا يسلّم به له.

وقال الجرجاني (الوساطة بين المتنبي وخصومه ٣): (صار قولك برهاناً مسلّماَ) ولم يقل: مسلّماً به.

وقال أبو البركات الأنباري (أسرار العربية ١٢٦): (ولو سلّمنا صحته) ولم يقل: ولو سلّمنا بصحته.

وقال الحريري (درّة الغواص ٢/٣٠): (فإن قلتَ شرط قط أن تستعمل بعد النفي قلتُ: أولاً لا نسلّم ذلك) ولم يقل: لا نسلّم بذلك.

وقال ابن خلدون (مقدمة ابن خلدون ٤١٤)": (ولو سلّمناه جدلاً) ولم يقل: ولو سلّمنا به جدلاً.

وقال ابن هشام الأنصاري (شرح بانت سعاد ١٥): (وأما الأول فلا نسلّمه إلا بعد الوقف على ما قبله) ولم يقل: فلا نسلّم به.

وقال السبكي (المزهر في علوم اللغة ٣٦٦): (وهذا مسلَّم) ولم يقل: مسلّم به.

وقال بعضهم في النبي –صلى الله عليه وسلم– (نفح الطيب ١/٥٥):

أكـــــــرمْ بعبـــــــدٍ سَـــــــلّمتْ   تقديمَـــــــهُ الرُّسُـــــــلُ الكِـــــرامْ

ولم يقل: سلّمت بتقديمه.

قال الجاحظ (الحيوان ٣/٢٥٥): (فإن كان يعرف أنثاه وهو يجدها مع ذكر ضعيف وهو مسلّم لذلك). وقوله (مسلّم لذلك) الأصل فيه (مسلّم ذلك)، وإنما اجتلب اللام في (لذلك) لتقوية العامل الذي ضعف وهو (مسلّم) لأنه فرع في العمل كما هو معروف في علم النحو.

ومن شاء مزيداً من الشواهد أمكنه إن شاء الله أن يستخرجها من درّة الغواص (٢/٩٧) نفح الطيب (٦/٢٧) وبناء المقالة الفاطمية (ص٣٤ و٤٨ و٦٧ و ١٥٦).

فعدّة ما عندي من الشواهد ثمانية عشر شاهداً، أثبت منها اثني عشر وأحلت البواقي على موطنها.

٢– قول العصريين: سلّم به:

على أن الأعمّ الأغلب من أدباء العصور الحديثة يعدّون (سلّم) بالباء غير عالمين أنه يتعدَّى بنفسه. فمن ذلك قول أديب مهندس في بعض المجلات (وهذا أمر.. لا مناص من التسليم به ولا مجال لدفعه). فقال: من التسليم به والمختار : من تسليمه.

وقول أستاذ جامعي في بعض الكتب (والاختلاف بين المستويات اللغوية مسلّم بوجوده) والمختار: مسلّم وجوده. وقول أستاذة جامعية في الكتاب نفسه: (إذا سلّمنا بصحة فرضية التمثيل) والمختار: إذا سلّمنا صحّة فرضية التمثيل. فإن قلت: أغلطٌ تعدية سلّم بالباء؟ قلت: لو تشدّدت لقلت هي غلط، ولو تسامحت لقلت هي لغة فصيحة ولكن تعدية الفعل بنفسه أفصح. فأمّا أنها غلط فلمخالفتها كلام القدماء الفصحاء وغير الفصحاء، ولرؤيتي إيّاها تحيا من طريق دفنها لغة حية أحسن منها. وأما أنها لغة فصيحة فلأن استعمالها الآن من قبل الخاصة والعامة يحوجنا إلى أن نجد ما يجيزها ويجعلها فصيحة أخذاً منها بالتدرّج اللغوي. وإجازتها تكون بالحمل على المعنى. وهو أن الأفعال قد يحمل بعضها على بعض إذا تقاربت معانيها. فمن ذلك قوله تعالى(فليحذر الذين يخالفون عن امره أن تصيبهم فتنة). فعُدّي (يخالف) بـ(عن) لأنه حُمل على (خرج). والمخالفة عن الأمر خروج عن لطاعة. وأرى أن الأصل في قولنا (سلّمت رأيك) هو عددته سالماً، أي سالماً من العيب، وعدّه كذلك يؤدي إلى الاعتراف به، لذلك حمل (سلم) على (اعترف)، فقيل: سلّمت برأيك وكأنّ المراد: اعترفت برأيك. فمن أحب الأخذ بـ(سلّم) متعدّياً بالباء بعد الذي بيّنته، دون أن يرمضه موت لفظ مزدهر في تراثنا الأدبي والعلمي

فله ذلك. على أني أحب أن يستعمل المختصون بالعربية (سلّم) متعدياً بنفسه ليبقى اللفظ حياًّ، لأن حياته تعيننا على فهم النصوص العربية القديمة التي يرد فيها هذا الفعل، ثم إن استعمالهم له يقيم توازناً بين لغة الأدب العالي ولغة الجرائد.

فوائت أستاذ معاصر

١- **أول الأخبار في استعمال المنجنيق:** في هذه المجلة (العدد ٣٣ ص٦٩) قول للأستاذ عبد السلام هارون رحمه الله في المنجنيق كان في ضمن مقالة قرأها قبيل وفاته على أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو: (وأول الأخبار في استعمالها في الإسلام كان في سنة ٧٢ من الهجرة ايّام حصر الحجاج لعبد الله بن الزبير بمكة). وذلك منه خطأ. والصواب أن سلمان الفارسي رضي الله عنه اتّخذ للمسلمين منجنيقاً فكانت أول منجنيق عرفت في الإسلام. ونصبها النبي –صلى الله عليه وسلم– على الطائف حين غزاها سنة ٨ للهجرة، وكان هو أول من رمى بها (أنساب الأشراف ٣٦٦/١). وكان عروة بن مسعود وغيدن بن سلمة حينئذ في جُرش يتعلمان صنعة المجانيق والدبابات والضبور (سيرة ابن هشام ٤٧٨/١)، ثم استعملت زمن عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– قبيل فتح المدائن، وذلك في حصار بهرُسير سنة ١٥ هـ، فحصرت شهرين ترمى بالمجانيق ويدبّ إليها بالدبابات حتى فتحت (تأريخ الطبري ٥/٤). والدبابة آلة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال وتقرّب من الحصن المحاصر لينقبوه ويقيهم ما يرمون به من فوقهم. والضبور مثل رؤوس الأسفاط يتّقى بها في الحرب عند الانصراف.

٢- **عبد الملك بن مروان وآل المهلّب**: قال الجاحظ في البيان والتبيين: (وقال رجل عند مسلمة: ما استرحنا من حائك كندة حتى جاء هذا المزوني) (٩٩/٢)، وقال محقّق الكتاب الأستاذ عبد السلام هارون في أسفل الصفحة: (يعني بحائك كندة عبد الرحمن بن الأشعث لأنه خرج على عبد الملك .. والمزوني هو يزيد بن المهلب وكان أيضاً خرج على عبد الملك إلى أن ظفر به (مسلمة)، قلت: هذا خطأ، وإنما خرج يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك وليس على أبيه عبد الملك بن مروان. وقد كان المهلب وأبناؤه، ومنهم يزيد، يدينون لعبد الملك بالطاعة، وحاربوا الخوارج حروباً شديدة تثبيتاً لسلطانه حتى قضوا عليهم، إلا بقية تشذّرت في أطراف البلاد تشذّراً، وما نكث أحد منهم بيعته. وما زالوا على طاعتهم له حتى توفي سنة ٨٦ هـ. وذلك معروف في كتب التأريخ والأدب.

٣- **عثمان بن عفان وضابئ البرجمي**: ورد ذكر ضابئ البرجمي في كتاب الحيوان (٣٧٠/١) وقال فيه محقق الكتاب الأستاذ عبد السلام هارون: (كتب مصحح الطبعة الأولى من الحيوان: اتفق أهل الأخبار أنّ ضابئاً كسر ضلع عثمان يوم الدار، وأن الحجّاج قتل ضابئاً لمّا ولي العراق). هكذا، وكأنه ارتضى قوله، وهو خطأ. والصواب أن الذي كسر ضلع عثمان- رضي الله عنه- يوم الدار ابن ضابئ البرجمي واسمه عُمير. وذلك أن ضابئاً كان هجا ناساً واتّهم أمهم بكلب بقوله في أبيات (الشعر والشعراء ٣٥٠/١):

فأمكُمُ لا تتركوها وكلبكم فإنّ عقوق الوالدات كبيرٌ

فحبسه عثمان ثم مات في سجنه. فلمّا قتل عثمان جاء عمير بن ضابئ فكسر ضلعاً من أضلاعه. ثم قتله الحجاج بفعله هذا، في خبر مذكور في تأريخ الطبري (٢٠٩/٢٠٧/٦).

تنبيه: هذه الفائتة هي في الطبعة الأولى من كتاب الحيوان ولا علم لي بما أعقبها من طبع. فإن كانت تلوفيت في طبعة أخرى، فعسى أن يستفيد فائدتي هذه من عنده الطبعة التي فيها الفائتة. وتنبيهي هذا يصلح أيضاً للفائتتين الآتيتين. ولم أجد في خزانة كتب SOAS من جامعة لندن إلا الطبعة الأولى لهذا الكتاب.

- **قولهم القاموس بمعنى المعجم:** استعمل الجاحظ في كتاب الحيوان (١٥٦/٢) (المطارح)، فقال الأستاذ عبد السلام هارون: لعلّ المطارح ضرب من الحشايا ولم أجد لها شرحاً قاموسياً. أراد أنه لم يجد لها شرحاً في المعاجم. فاستعمل (قاموسياً) بمعنى (معجمياً) لاعتقاده أن لفظة القاموس تعني فيما تعنيه المعجم. والحقيقة أن القاموس اسم معجم ألّفه الفيروزآبادي؛ فلا يصحّ أن يقال لكل معجم قاموس، ولا يصحّ أن يُقال قاموسياً في معنى معجمياً. فإذا قلت وجدت معنى الكلمة في القاموس دلّ قولك على أنك وجدته في القاموس الذي ألّفه الفيروزآبادي لا في الصّحاح ولا المصباح المنير ولا غيرهما. فإن كنت تعني أنك وجدت المعنى في الصحاح أو المصباح المنير أو غيرهما كان قولك خطأ، فلكل معم اسم يسمى به، وأيضاً كلٌّ من المعاجم يُقال له معجم ولا يُقال له قاموس. وهذا الغلط فاشٍ بين الكتّاب ونبّه عليه غير واحد من اللغويين. وكنت تعلّمت ذلك وأنا صبي سنة ٣٩ إذ نشر الشاعر معروف الرصافي مقالة في جريدة البلاد البغدادية

يُخطّئ فيها الدكتور محمد مهدي البصير في أشياء منها استعماله القاموس بمعنى المعجم [1].

٥- **حذف (أمّا)**: أنا مقدّم ههنا قولاً في (أمّا) لم أرَ قولاً في معناه في كتب النحو التي قرأتها:

قال الجاحظ في كتاب الحيوان (والوجه الآخر فلأن الليل موحش مخوف الجوانب). فلما حقّق الأستاذ عبد السلام هارون الكتاب أضاف إلى أول عبارة الجاحظ (أمّا) فأصبحت" [(وأمّا) الوجه الآخر فلأن الليل موحش مخوف الجوانب] (٢٨٤/١).

وقال في (وأمّا): (زيادة يفتقر إليها الكلام)، هكذا، وقد أخطأ فيما فعل. فما في المخطوط هو كلام الجاحظ وهو صحيح، بل هو ذو بيان عالٍ. و(أمّا) فيه محذوفة وتفهم من الفاء الدالّة عليها، وينبغي تقديرها عند الإعراب. ونظير ذلك قول أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- فيما كتب به إلى أبي عبيدة: (... وعمرو فأوصيك به خيراً)(فتوح الشام ٤٢) والتقدير: وأمّا عمرو، وقول صعصعة بن صُوحان: (إذا لقيت المؤمن فخالصه، وإذا لقيت الكافر فخالفه، ودينك فلا تكلمنّه) (مجمع الأمثال ٣٢٩)، والتقدير: وأمّا دينك. وممّن اقتدى بأقوال الفصحاء من المولدين في حذف (أمّا) إبراهيم بن المهدي بقوله: (وكانت أم إسماعيل رومية، وأنا فلم تلدني رومية) (عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢١٧) والتقدير: وأمّا أنا، فلم تلدني رومية، ويوحنا بن ماسويه بقوله للواثق في شراب غير

(١) ممن وهم في ذلك الأستاذ الفاضل حسن الكرمي، قال في مدقمة معجمه (الهادي إلى لغة العرب ٢٦): (والذي صنعته في قاموسنا الهادي يقوم على الاعتبارات التالية). وقال أيضاً في المقدمة (٢٩): (بعد أن بيّنا ما أحدثنا في قاموسنا من تطوير وتحسين).

صاف قدّم له: (يا أمير المؤمنين أمّا المذاقات، فقد عرفتها واعتدتها، ومذاقة هذا الشراب فخارجة عن طبع المذاقات كلها) (عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٤٦)، والتقدير: وأمّا مذاقة هذا الشراب. وكان المستشرق (السنيور كرلو نلينو) قال شيئاً هو بسبيل ذلك، فاستدركت عليه قوله في مجلة مجمع دمشق وجاء في آخر استدراكي قولي: (وقد وجدت في بعض النصوص ما يدل على جواز تقدير أمّا) (مج ٦٠ ج١ ص٣٢٥) وأمسكت قلمي عن تفسير قولي لعدم الحاجة إليه، على أني فسرته الآن ههنا، ولكل قول إبّان.

وأزيد قائلاً: لم أرَ من القدماء الفصحاء المستشهد بلغتهم من يحذف (أمّا) من (أمّا بعدُ) فيقول (وبعدُ). ومع ذلك حذفها جماعة من المولدين، كالجاحظ، قال في بعض كتبه: (وبعدُ، فإنّ كلّ خُلُق فارق أخلاق الناس فإنه مذموم). وكالفيروزآبادي، قال في القاموس (١٠): (وبعدُ، فإنّ للعلم رياضاً). وعندي أنّ ذلك من التدرّج اللغوي الصحيح.

انتهت المقالة، والحمدلله إن سكت عنه لساني لم يسكت عنه جناني [١].

(١) كنت في أثناء كتبي هذه المقالة كتبت من شفيلد إلى صديقي الأديب أحمد العلاونة في الأردن راجياً إياه أن يثبت في بعض الشواهد اللغوية التي أثبتها في المقالة، وهي منقولة من دفاتر لي، ففعل ذلك مراراً متكلّفاً جهداً ومالاً، فجزاه الله عن لغة القرآن خيراً.